

حسين إسماعيل الأعظمي و غارته القلمية الجديدة

جواد وادي*

هي غارة قلمية بامتياز، حيث ازدانت المكتبة الموسيقية العربية عموما والعراقية على وجه التحديد باشراقة جديدة تضاف إلى مثابرة الفنان المبدع حسين الأعظمي، ليثبت للقارئ المهتم بأنه قامة فنية كبيرة وينبوع دافق العطاء، باعتبار سعيه الحثيث والجاد لتوثيق وجدان الشعب العراقي متمثلا بفن المقام العراقي، أحد بوابات العراق الإبداعية المتعددة المشارب والثراء.



إنني كقارئ متابع لأنشطة الفنان حسين الأعظمي في أبحاثه ورصده لفن المقام العراقي، مضافا إلى كوني ساهمت بإبداء شهادتي المتواضعة والمفعمة بالإعجاب في مؤلفه "الطريقة القندرجية"، لا يسعني إلا أن أرفع سبابتني عرفانا واعترافا بهذا الجهد الذي يتعاضم يوما بعد آخر، بقصد أرشفة وتوثيق هذا الفن الخالد قبل أن يمر بمحطات يبهت فيها أو يتعرض للتشويه لأي سبب كان، سيما ونحن نعيش حالات غير صحية يختلط فيها الغث بالجيد وفي كل مناحي حياتنا الثقافية والفنية،

وتحديدا فن المقام العراقي لأن الجيل الراهن مع تقديري لمثابرتة قد ميّعتة موجات الفن الهابط وترك الفن الأصيل الذي يعتبر الهوية الحقيقية للشعب المنتج لشتى صنوف الإبداع الإنساني.

وبهذه الإضافات الهامة والجديدة التناول والتحليل من حيث الرصد التاريخي لمسار التطور الذي خضع له فن المقام العراقي، وأهم المحطات التي مر بها، مع ذكر الأسماء التي تواشجت مع هذا الفن وارتبطت به، وأعطت الكثير من روح التعامل الرصين والحميمي، كونه يعتبر موقفا كيانيا وليس بالعابر أو المؤقت حين يتعامل صاحب العلاقة مع فن المقام كموروث وقيمة وتراث وهوية ووجدان وطني وغيرها من التوصيفات التي أحالت هذا الموروث من فن نزهة وطرب عند البعض إلى تعبير حقيقي للانتماء، وبهذا ينبغي شحذ كل الأسلحة لخدمة هذا الفن والحفاظ عليه ومتابعة السياقات التاريخية التي مر بها حتى وصلنا بهذه الحلة القشبية والفائقة القيمة العلمية بعد أن تعرض وفي فترات مختلفة إلى عملية إزاحة للطارئ بحيث تحولت هذه الموجة إلى ظاهرة طغت في العقود الأخيرة على ذائقة الجيل الراهن، أنسته تماما تراثه وقيمه الموروثة والتي يمكن أن تشكل بوصلة يتفاخر بها من يمتلك صدق الانتماء لتلك الأرض المقدسة بكل تاريخها الخالد بعطائه وإشعاعه على مر العصور،

من هنا جاءت أهمية هذا البحث الجديد كإضافة أساسية بجهد كبير ومتابعة في نبش الذاكرة التاريخية بعلمية أكاديمية بعيدة عن السفسفة والكلام الملقى على عواهنه كما نلاحظ في العديد من الكتابات من أجل ملاء الفراغ ولا تترك بصمة حقيقية لمادة التناول.

إن فنانا وباحثنا بهذا القدر من الشكيمة في تحمل الصعاب ومن مناحي عدة، معنوية كانت أم مادية، في أن يكرس كل وقته ليخرج لنا بهذه الحلة الدراسية القيمة، لهو عمل وطني صادق بامتياز كونه مقاتل شرس في مجاله الفني والبحثي ليتترك لنا نحن المجابليون له وللاجيال اللاحقة هذا الخزين العلمي لفن يعتبر هوية تلك الارض وناسها.

يذكرني هذا الجهد المتميز، بما قام به العلامة الجليل الدكتور طه باقر حين نقل لنا تاريخ العراق القديم بكل بهائه، متابعين ومهتمين وقراء عراقيين وسواهم من الباحثين الذين كانوا يتحرقون شوقا لفك رموز تلك الحضارات الخالدة باعتبارها هي التي أسست لأبجديات الوعي الإنساني من مهد الحضارة أرض العراق المقدسة حتى يومنا هذا.

لكل من هؤلاء الجادين دوره واهتمامه وجهد أختصاصه في تدوين تراث وطنه، فلا يسعنا إلا أن ننحني إجلالا لهذه الأقدام الخيرة التي أثرت وجودنا مفاخرة وانتماء ومتابعة ووعيا متقدما لنحرص على ديمومة وجودنا بين الأمم كوننا من أحال الوجود الإنساني إلى وجود مشع وبألق ما خبا يوما، رغم عوادي الأيام ومحاولات طمس وجودنا وتشويهه تاريخنا الحافل بالأمجاد.

كتاب الفنان المتألق والباحث الجاد حسين إسماعيل الأعظمي الموسوم (المقام العراقي بين طريقتين) (دراسة موسيقية لفترة الصراع خلال القرن العشرين)

أول ما لفت انتباهي في عنوان المؤلف الجديد كلمة (صراع) لنشدد عليها لمعرفة ذلك الصراع من خلال الغوص في متون الكتاب للتوصل إلى الإجابة لاحقا.

الكتاب من إصدار المؤسسة العربية للدراسات والنشر اللبنانية، بغلاف جميل من إنجاز الفنان زهير أبو شايب. تتصدر الكتاب صورتان لبغداد القديمة من ذلك الزمن الجميل (للجسر الخشبي العتيق) جسر الأئمة حاليا الذي يربط الأعظمية بالكاظمية. وهذه إنتباهة فاطنة وذات مغزى، هي بمثابة رسالة لكل العراقيين وغيرهم، بأن العراق موحد وقلوب العراقيين سواقي نقية تلتقي على المحبة والتآخي وفن المقام موضوع البحث هو الوشيجة الوجدانية التي توحد القلوب وتصفى النوايا والمشاعر الوطنية بمشاعر إنسانية جياشة. وهنا أرى أن الكاتب الأعظمي من صدق إنتمانه ونباهته أثت مدخلا عراقيا وبوابة وطنية للولوج في حضرة فنهم، قنطرة وطنية صادقة. وكأني به يريد أن يقول بأن فن المقام بإمكانه أن يكون عنصر توحد وتقارب بين العراقيين أبلغ وأكثر عمقا مما يصدر من السياسيين من فرقة وتشردم لأن أمر هؤلاء لا يعنينا بقدر ما يعنينا التقارب العراقي العراقي في خيمة عراقية تجمعنا في محبة الوطن والتفاني من أجله، فتحية لهذا التوظيف الرائع.

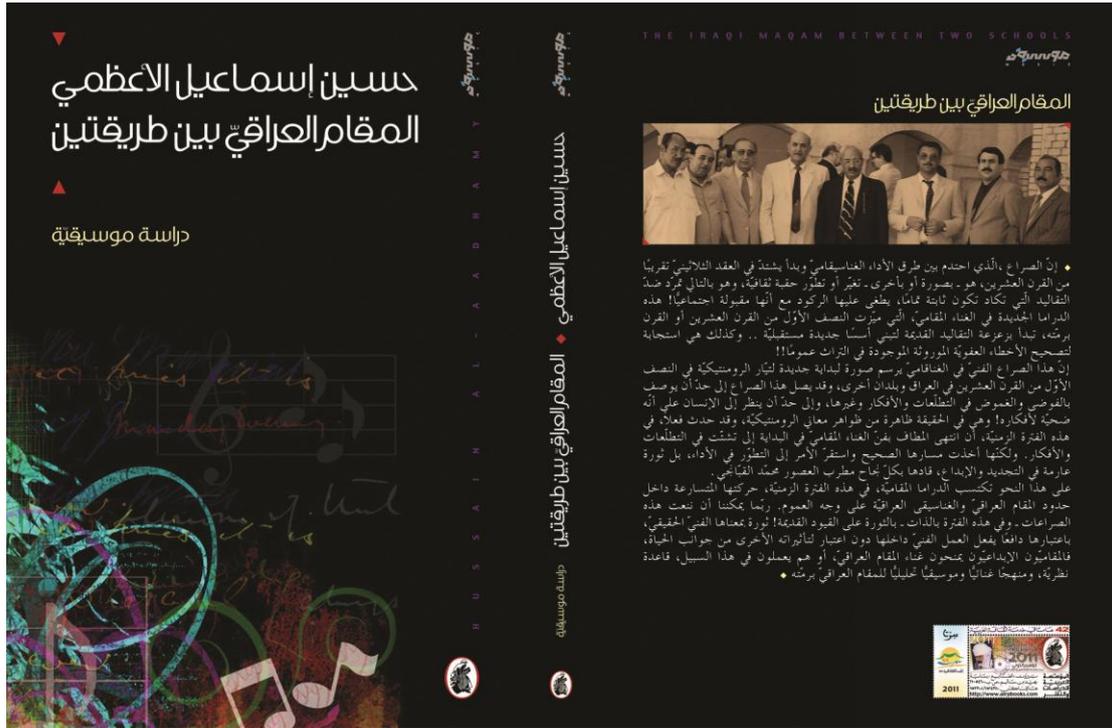
كما عودنا الباحث حسين الأعظمي في بحوثه السابقة بسعيه لتضمين الكتاب بصور تعتبر توثيقا للبحث وتمنح القارئ متعة القراءة من خلال التعرف على أسماء وشخصيات وقراء مقام وإعلاميين لتكتمل الصورة، سيما أننا نجهل العديد من هذه الوجوه وحتى بعض الأسماء التي نتعرف عليها للمرة الأولى، وهذا جانب مهم من جوانب الدراسة حين تتوثق بمرجعيات تمنح مصداقية للبحث ورسائله.

لمعرفة ماهية الصراع الذي ذكره الباحث في واجهة الغلاف، نجده في الغلاف الخلفي حيث يقول: (إن الصراع، الذي احتدم بين طرق الأداء الغناسيقيامي وبدأ يشتد في العقد الثلاثيني تقريبا من القرن العشرين، هو - بصورة أو بأخرى- تغير أو تطور حقبة ثقافية، وهو بالتالي تمرد ضد التقاليد التي تكاد تكون ثابتة تماما، يطغى عليها الركود مع أنها مقبولة اجتماعيا! هذه الدراما الجديدة في الغناء المقامي، التي ميزت النصف الأول من القرن العشرين أو القرن برمته، تبدأ بزعة التقاليد القديمة لتبني أسسا جديدة مستقبلية.. وكذلك هي استجابة لتصحيح الأخطاء العفوية الموروثة الموجودة في التراث عموما!!

يتبين لنا إذا أن المقام الذي وصلنا الآن ليس هو السائد بتفاصيله في ثلاثينيات القرن الماضي، بل أنه مر بمراحل تشذيب وإضافات وإنزياحات هامة خضعت لاجتهادات وحدثت الرويا وجعلت المقام يساير التطور دون المساس بجوهره، بل بطرق أدانه، وهذه المعلومة قد تكون غائبة عن العديد من المتابعين وعشاق المقام.

يفتح الكاتب الأعظمي مؤلفه بكلمة شكر طويلة يعدد فيها أسماء ممن ساهم وساعد بشكل أو بآخر في إخراج هذا العمل، وبأسلوب الباحث المتواضع، يوجه شكره لكل من مد له يد العون لهذه الأضمومة القلمية الهامة وهم كثر، لكنه يوجه ثناءه الخاص لعائلته الحبيبة: زوجته وداد خضر عباس الجبوري وفلذات كبده د.وديان وعازف القانون غسان والتوأم د. صبا و د. نوى، أدامهم الله له جميعا، بالإضافة إلى آخرين ممن أسدى له المشورة أو قدم له المساعدة.

أما الإهداء فيخصه إلى (أخي العزيز وصديقي العتيد نصيف جاسم محمد العبيدي "أبي نبأ" الذي عاش أكثر من ستة عشر عاما أسيرا في إيران)



في مقدمة الكتاب يتناول الباحث سبعة محاور هي:

- الفنان الناجح غاية ووسيلة

- الجمال المسموع

- أهمية النقد

- صراع جمالي

- تحولات جمالية

- رؤية القندرجي والقبانجي للتأريخ

- شكل المقام العراقي

في هذا المحور الأخير يقول الكاتب أن المقام يتكون من خمسة عناصر أساسية يعتمد عليها كل مقام هي:

1- التحرير

2- القِطْع والأوصال

3- الجلسة

4- الميانة

5- التسليم

ودون أن نتعرض لكل عنصر على حدة لضيق مساحة التناول، وسنخصص دراسة مطولة لهذه البحوث لما تستحق من عناية، نقول أننا اكتشفنا كمنصتين لفن المقام دهاليز هذا الفن الذي قد تكون غائبة على العديد من محبي المقام، ولا يتعدون كونهم مستمعين وعاشقين لفن الإنصات، وحتى تكتمل المتعة يصبح من الضروري معرفة كل هذه التفاصيل وبلغه المجرى يعتمد هذا الكلام.

المتعة المضافة لقراءة هذا البحث كثرة الصور التي اجتهد الفنان الأعظمي كثيرا لتجميعها وأرشفتها وهي تورخ لمحطات عامة مر بها المقام العراقي بقرانه وعازفيه ومريديه من نقاد وإعلاميين راصدين له بحضورهم الدائم جلسات غنائية عديدة كما توضح الصور المرفقة.

في الباب الأول / الفصل الأول

نقرأ المحاور التالية:

- تمهيد

- الصراع بين الطريقتين (وهما الطريقة القندرجية والطريقة القبانجية)

- زعزعة في الشكل والمضمون

- وسائل الإعلام

- أصلتنا الحقيقية والحادثة... في هذا المحور يقول الباحث "إن المنظور الجديد الذي يتيح لنا الغناء المقامي والنقد الحديث والمعاصر، يسمح لنا في المقابل، الاعتراف بعبقرية مغني مقامي تمسك بالأصول التاريخية وحافظ بكل قوة على محلية هذا الكيان، أو بالأحرى على هوية هذا الكيان الغناسيقي التراثي"

- أهمية القندرجي والقبانجي

- قيم الحداثة

- إنصهار الحدود بين الطريقتين

والجدير بالذكر والإشادة، إن الكتاب يتضمن نصوصا شعرية عديدة، هي المادة الأساسية لتوظيفها في قراءة المقام لشعراء محدثين وقدماء تعتبر من عيون الشعر العربي وكان الاختيار موفقا للغاية، ومما ينبغي الإشارة له أن الكتاب وكما أسلفنا يعج بالصور الهامة، أتمنى من الفنان الأعظمي أن ينظم معرضا فوتوغرافيا على هامش عروضه الموسيقية، لأنها تمثل بحق ذاكرة مهمة توثق وتوثق بجمالية ووجدان طاغ لمراحل يكون العراقي والمتابع لهذا الفن بأمس الحاجة لها، لتدخله دونما قصد إلى عوالم الزمن الجميل ببهائه وألقه وعطائه. كما لا يفوتنا أن ننوه بما أقدم عليه الفنان الأعظمي

بتضمين الكتاب لوحات تشكيلية لفنانين عراقيين مرموقين أضفت بعدا آخر من خلال توظيفها بطريقة ذكية وفائنة وكأني به يريد أن يشرك أكبر عدد من المبدعين والفعاليات الفنية والثقافية في عمله هذا ليخرج من شرنقة الذاتية وليمنح كتابه منافذ عدة منفتحة على كل الإبداعات.

في الفصل الثاني من الباب الأول، نتعرف على محاور أخرى هي:

- استهلال الفصل (والاستهلالات في الكتاب غالبا ما تكون نصوصا شعرية مختارة بدراية العارف بقيمة النص وموقع شاعره في الشعرية العراقية والعربية)

- المقام العراقي في حقبة التحول

- غير المنظور في الطريقة الغنائية (ويعني بها المضامين التعبيرية في الأداء مما يتطلب وعيا وعمقا في شخص المؤدي للوصول للهدف الذي قد لا يكون من اليسير فهم مقاصد القارئ الفطن)

الباب الثاني من الكتاب مكرس كله لقارئ المقام المعروف عبد الهادي البياتي

1974-1911 (راند الغناء المقامي الأصولي) يستهله بقصيدة الكبير مصطفى جمال الدين الرانية الشهيرة:

" بغداد ما اشتبكت عليك الأعصر.....إلا ذوت ووريق عمرك أخضر"

وهي أجمل ما قيل بوصف بغداد حاضرة الدنيا ومؤول الباحثين عن الدفاء الإنساني العابق. فكان اختيارا موفقا للغاية من مبدعنا حسين الأعظمي.

في الفصل الثاني من الباب الثاني مكرس لقارئ المقام سليم شيت **1907-1981**

مع ذكر أهم المقامات.

أما الفصل الثالث فقد خصصه الكاتب (لراند المقام الروماتسي) حسن خيوكة **1912-1962** الفنان الذي (عاش كل حياته فقيرا، هاويا، محبا لتراث وطنه الخالد المقام العراقي) ليعرج الكاتب على قارئ المقام مجيد رشيد **1915-1982**

من خلال قراءتنا لمتون هذا البحث القيم وبعد أن تعرفنا على تفاصيل كنا نجهلها تماما، تتعلق كلها بفن المقام شأن البحوث التي سبقت هذا الإنجاز من ذات المبدع الباحث والفنان حسين إسماعيل الأعظمي، لا يسعنا إلا أن نشيد بجهده المتميز والراصد لفن المقام الخالد آملين له النجاح والمزيد من العطاء.

بقي أن نتساءل إن كان بإمكان الفنان الأعظمي وبقية المهتمين بهذا الفن عن إمكانية إصدار مكتبة صوتية بطرق التسجيل الحديثة تشمل قراءة المقام بكل روافده واصوله وبأصوات مقرنين متميزين، والأعظمي واحد منهم مع شرح مفصل صحبة الأداء.

ليتعرف المستمع والمتابع أكثر على المقام والإسهام بإنتشاره خارج العراق، خصوصا ونحن نسلم بين الفينة والأخرى من أصدقاء غير عراقيين، يتساءلون عن ماهية المقام وأصوله وطرق غنائه. فكم سيكون رائعا لو تحققت المتعة بالتقرب من المقام والتعرف عليه أكثر حتى بالنسبة للعراقيين أنفسهم. ونتمنى أن نسلم الجديد والمبهر في هذا الخصوص، لتتكمل الجهود الخيرة لخدمة العراق الغالي.

نبذة مختصرة عن مطرب المقام العراقي حسين الأعظمي

- 1 - حسين بن اسماعيل بن صالح بن رحيم العبيدي الأعظمي ، ولد في 8/ايلول/1952 في بغداد مدينة الأعظمية التي تعد مركز مهما لتراث المقام العراقي ، من عائلة تمارس هذا التراث دينيا ودينويا دون احتراف .
- 2 - رياضي ومدرب دولي في المصارعة الحرة والرومانية وبطل العراق لـ 5 سنوات
- 3 - حاصل على شهادة الدبلوم العالي في الموسيقى والغناء ، وشهادتي البكلوريوس والماجستير في العلوم الموسيقية الشرقية والغربية من جامعة بغداد ..
- 4 - مدير ومطرب المقام العراقي في فرقة التراث الموسيقي العراقي / مدرس المقام العراقي والموسيقى في المعهد والكلية ببغداد / عميد معهد الدراسات الموسيقية ببغداد / مدير بيت المقام العراقي ورئيس الهيئة الاستشارية فيه / امين سر اللجنة الوطنية العراقي للموسيقى / عضو اللجنة الاستشارية العليا للموسيقى والغناء في العراق / عضو جمعية الملحنين والمؤلفين الفرنسية ..
- 5 - غنى المقام العراقي في اكثر من سبعين بلدا ، ونال اوسمة وجوائز وشهادات تقديرية عديدة من المهرجانات والمؤتمرات الفنية طيلة اكثر من سبعة وثلاثين عاما من التجربة
- 6 - حاز على جائزة الابداع الكبرى في العراق عام 1999 / ونال لقب فني من وزارة الثقافة العراقية (سفير المقام العراقي) عام 2003 / عضو نقابة المعلمين في العراق ..
- 7 - نال جائزة (الماستر بيس , A Masterpiece) العالمية من منظمة اليونسكو 2003 ، عن بحث وغناء وتحليل في المقام العراقي ..
- 8 - ألقى العديد من المحاضرات عن المقام العراقي والموسيقى العراقية في المؤتمرات الدولية والجامعات العربية والأجنبية وكذلك المؤسسات الفنية منها: معهد العالم العربي في باريس / معهد الموسيقى العالي بتونس / كلية التربية الموسيقية في القاهرة / جامعة اليرموك في الأردن / الجامعة الاردنية / مؤسسة خالد شومان في عمان / جامعة فاس في المغرب / جامعة هارفرد ببوسطن / جامعة جورج تاون بواشنطن / احدى المؤسسات الفنية في نيويورك / حاليا خبير ومدرس الغناء في المعهد الوطني للموسيقى التابع الى مؤسسة الملك حسين في الاردن ..
- 9 - مطرب وباحث ومدرس ومؤلف ، وله سبعة كتب في الموسيقى والغناء مطبوعة ، واكثر من هذا العدد مخطوطة ..
- 10 - صدرت له العديد من الالبومات الغنائية بصوته في غناء المقام العراقي بالاقراص المدمجة CD في اوربا وبلدان العالم الاخرى ..
- 11 - تم ادراج اسمه ونبذة عن حياته في موسوعة اعلام القرن العشرين في العراق .
- 12 - منح شهادة الدبلوم الفخرية من مهرجان (عالم المقامات) في باكو العاصمة الاذرية 2009
- 13 - منحته جمعية المترجمين واللغويين العرب الدولية شهادة الدكتوراه الفخرية مطلع عام 2009